الفصل الرابع

شخصيات صابرة ذكرها القرآن

ومن دلائل عناية القرآن بفضيلة الصبر ، وحرصه على توجيه المسلمين للتحلى بها ، وتربيتهم على ممارستها خُلُقاً وسلوكاً ، ما عرضه من خلال قصصه من شخصيات تُعَد أمثلة رائعة فى التحلى بالصبر فى ألوانه المتعددة ومجالاته المتنوعة .

من هذه الشخصيات أو النماذج :

● أيوب

ولعل اسم أيوب أشهر الأسماء التى تقترن بالصبر كلما ذُكرت ، حتى ضرب الناس به المثل فقالوا : صبر أيوب .

وصبر أيوب كان على ما أصابه من ضُرٍّ فى بدنه ، وعلى فقده أهله ، وإن لم يصل حد المرض الذى أصابه إلى ما حكته الإسرائيليات والروايات المكذوبة ، وتلقفه الخيال الشعبى فأضاف إليه وزاد فيه ، من بدن مقروح يتناثر منه الدود ، وجسم عليل يكاد يشبه الرِّمة البالية ، إلى غير ذلك مما يستحيل على رسل الله أن يصابوا به ، حتى لا ينفر منهم الناس الذين يدعونهم إلى الله .

يقول تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(الأنبياء:٨٣-٨٥)

ومن لطائف الأدب فى نداء أيوب لربه أنه لم يسأله شيئاً معيناً كالشفاء أو العافية ، أو إعادة الأهل إليه ، إنما اكتفى بأن ذكر نفسه بالحاجة والضعف وذكر ربه بما هو أهله . ولم يزد على ذلك شيئاً : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

ويقول تعالى فى سورة (ص) مخاطباً رسوله : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

(ص: ٤١-٤٤)

وفى هذه الآيات تكريم وأى تكريم ، وتشريف أى تشريف ، من الله تعالى لأيوب عليه السلام . حيث بدأ القصة بخطاب رسوله محمد ﷺ بقوله : ﴿ وَٱذْكُرْ ﴾ وهذه العبارة تحمل معنى التخليد للمذكور بعدها فى أعظمْ كتب الله ، وجعله موضع الاقتداء والتأسى فيما اختص به من فضيلة ، لأعظم رسل الله .

فهذه ـ كما قال أبو طالب المكى ـ كلمة مباهاة : باهى بأيوب عند رسوله المصطفى عليه السلام ، وشرَّفه وفضَّله ، بقوله : «اذكر يا محمد ...»، فأمره بذكره والاقتداء به كقوله تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

وشرَّف الله أيوب مرة أخرى بقوله ﴿ عَبْدَنَا ﴾ فأضافه إليه إضافة تخصيص وتقريب ، ولم يدخل بينه وبينه لام الملك ، فيقول : عبداً لنا .

وشرَّفه مرة ثالثة حين استجاب له نداءه ورد عليه عافيته ، ووهب له وأهله ومثلهم معهم ، رحمة منه وذكرى لأُولى الألباب .

ومرة رابعة حين جعل له مخرجاً من يمين حلفه على امرأته ، وهو فى مرضه تخليصاً له من مأزق الحنث ، وتكريماً له على جميل صبره .

وتوَّج هذا كله بهذا التذييل الكريم بهذه العبارة الندية : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ .

فهذا التذييل يحمل أسباب التشريف السابق ، وهو فى ذاته تشريف جديد ، فى كل جملة من الجمل الثلاث .. وحسبك أن يسجل الله له فضيلة الصبر بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ فوصل اسمه باسمه ، ووصفه بالصبر فأظهر مكانه فى القوة والعزيمة .

ثم قال: ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ وليس هناك أشرف من وصف الإنسان بالعبودية لله تعالى، فكيف بمن قيل فيه: نعم العبد ؟ ! ثم قال: ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾. والأواب هو البالغ فى أوبته ورجوعه إلى الله تعالى. وقد أشرك الله معه فى هذا داوود وسليمان عليهما السلام.

• يعقوب

وقبل أيوب عرض القرآن لنبى آخر من أهل الصبر على البلاء، هو نبى الله يعقوب، الذى وصفه الله ـ مع أبويه إبراهيم وإسحاق ـ بأنه من عباده: ﴿ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ (ص:٤٥) (أى القوة فى دين الله والبصر بدينه).

لقد امتُحن بفراق أحب أبنائه إليه: يوسف، ومن بعده شقيقه الأصغر، الذى قيل إن اسمه « بنيامين ».

ولم يكن صبر يعقوب على يوسف بالأمر الهين أو الخطب اليسير ..

(أ) إذ لم يكن يوسف ابناً عادياً بالنسبة إلى أبيه.

إنه الصغير الذى ينال عادة من قلب أبيه ما لا ينال الكبير.

وإنه اليتيم الذى منحه أبوه من عاطفته ما يعوِّضه ما فقده من حب الأم.

وإنه الجميل الذى ضُربت بحسنه الأمثال، ومن طبيعة الجمال أن يُحَب.

وإنه النابه الذى تبدو عليه مخايل للنجابة منذ نعومة أظفاره. وتوسم أبوه من رؤياه التى قصَّها عليه أنه سيكون له شأن أى شأن.

كل هذا جعل الأب يزداد تعلقاً بابنه، فلا عجب أن يكون الابتلاء بفراقه فى هذه السن من أَمَرِّ ما يذوقه الإنسان من شدائد الحياة.

(ب) ولم يكن فراق يوسف كأى فراق آخر بين حبيبين يعرف كلاهما أين يقيم صاحبه، ويرجو أن ينتهى الفراق يوماً بلقاء قريب، وإنما كان فراقاً بعد مؤامرة ادُعى فيها موت الصغير مقتولاً، وانتهى إلى انقطاع كلى بين الابن وأبيه.

حيث لا يعرف للابن مقر ولا مصير.

(ج) ولم تكن هذه المؤامرة أو هذا الكيد من غرباء موتورين، أو أعداء متربصين، فقد يهون الكيد على النفس إذا جاء من عدو، وإنما كان الكيد من إخوة لأخيهم، وكان الكذب من أبناء على أبيهم، وقد قيل: إن طعنة العدو تجرح الجسم، أما طعنة الصديق فتجرح صميم القلب. فكيف بطعنة الأخ لأخيه، والابن لأبيه ؟!

ومع هذا تجمَّل يعقوب بالصبر أولاً، وبالصبر آخراً، وقال بعد فراق الولد الأول: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف:١٨).

وقال بعد فراق الثانى: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:٨٣) فهو ليس صبر اليائس القنوط. وإنما هو صبر الآمل الراجى فى فضل الله، الواثق بأن بعد العسر يسراً، وبعد الفرقة اجتماعاً: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾.

ومع وعد يعقوب بالصبر الجميل لم يلبث أن هاج فراق ولده الثانى ذكرى ولده الأول ـ والأسى يبعث الأسى ـ فثار به الشوق والحنين والحزن، فتولى عن أبنائه وقال: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٨٤-٨٦).

ومن رحمة الله أنه قدَّر للبشرية طبيعتها وضعفها، فلم يَلُمْ يعقوب على ما أبداه من أسف على يوسف، ومن حزن ابيضت منه عيناه، ولم ينزله بذلك عن درجة ﴿ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ الذين هم عند الله المصطفون الأخيار».

ومن هنا قال علماؤنا: ولا يُخرج العبد من الصبر كراهة النفس، ولا وجدان المرارة والألم، بل يكون مع ذلك صابراً، لأن وصف البشرية لما ينافى طبعها.

ولهذا وجدنا النبى ﷺ يقول عند موت ابنه إبراهيم: « إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون »، ودمعت عيناه حين رأى بنت بنته تحتضر، فَرقَّ لها وبكى. فلما سئل فى ذلك قال: « إن هذه رحمة، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»!

فلا غرابة فى حزن يعقوب على يوسف .

ولما لاموا يعقوب فى استمراره على ذكر يوسف رغم مضى السنوات الطوال ، على فقده ، وتأثير ذلك على صحته : قال : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٨٦) .

وهنا نعلم أن الصبر الجميل الذى وعد به يعقوب ـ والنبى إذا وعد لم يخلف ـ لا ينافى الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى : إنما ينافى الشكوى من الله تعالى ، بإظهار الجزع ، والتبرم والسخط على القضاء ، والدعاء بدعوى الجاهلية ، ونحو ذلك مما يقوله أو يفعله الجاهلون بالله العظيم .

ومثل يعقوب هنا أيوب ـ عليهما السلام ـ فقد شكا أيوب إلى ربه ما به من ضر ، حين ناداه : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٣) ، ومع ذلك أثنى الله عليه فى كتاب الخلود بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ (ص:٤٤).

● يوسف

ومن النماذج القرآنية المرموقة فى عالم الصبر والصابرين يوسف بن يعقوب عليهما السلام .

فقد كانت حياته سلسلة متلاحقة من البلاء ، دامية الحلقات ، فلا يفرغ من محنة إلا ليدخل فى محنة مثلها أو أشد منها .

فرغ من محنة إخوته وكيدهم له ، ليدخل فى محنة امرأة العزيز وكيدها العظيم ، ويفرغ من كيد امرأة العزيز ، ليواجه محنة السجن ، ويلبث فيه بضع سنين ، بلا جرم جناه ، أو سبب قدمته يداه .

ويفرغ من هذه ليلقى محنة السَّرَّاء والعافية ، فيبتلى بالمنصب والوزارة ، ويتولى مسئولية الزراعة والمالية والتموين فى زمن أزمة طاحنة ، كادت تودى بمصر وما حولها من البلدان .

وهو إلى جوار هذه المحن كلها يعانى محنة الغُربة ، والبُعد عن الأهل والوطن والعشيرة كريه ، وخاصة مع الوحدة ، وطول الزمن ، وانقطاع الأخبار .

محن عديدة متوالية ، ولكنها لم تُلِنْ له قناة ، ولم تُحْنِ له ظهراً ، ولم تَفلح فى زحزحته عن التمسك بالصبر .

ولا عجب أن مكَّن الله له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، وجعله على خزائنها سيداً متصرفاً ، جزاء صبره وتقواه .

ولقد سُئل الإمام الشافعى يوماً : أيهما أفضل للمؤمن : أن يُبتلى أم أن يُمكَّن ؟

فقال : وهل يكون تمكين إلا بعد ابتلاء ؟ ! إن الله ابتلى يوسف ثم مَكَّنَ له ، فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٥٦) .

والحق أن مفتاح قصة يوسف ونجاحه فى حياته رغم ما اعترض من عقبات ومعوقات . تقصم فيها ظهور وتندق أعناق ـ إنما هو فى هذا التعقيب الموجز الذى حكاه القرآن على لسان يوسف نفسه ، بعد أن كشف لإخوته اللثام عن شخصيته : ﴿ قَالَ أَنَا۟ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٩٠).

إنها التقوى والصبر إذن ، ولا شىء غيرهما ، هما اللذان ارتفعا بيوسف إلى أرفع المقامات . والتقوى معنى جامع لكل خير ، والصبر معنى داخل فى كل بر ، فإذا اجتمعا لإنسان كان من المحسنين ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم ، النبى ابن النبى ابن النبى ابن النبى ، لم يغن عنه كرم أصله ولا عراقته فى النبوة ، إنما أغناه ونفعه التقوى والصبر .

وأى صبر ؟ إنه أرفع درجة من صبر أبيه يعقوب من قبل ، وصبر أيوب من بعده .

ولا سيما صبره عن الاستجابة إلى امرأة العزيز ، برغم أن كل الظروف من حوله تيسر له طريق الإغراء ، وتدفع إليه دفعاً . لكنه رفض بشمم ، واستعلى بإيمان ، وقال لها وقد خرجت بالتصريح عن التلميح ، بعد أن هيأت الأسباب ، وغلقت الأبواب : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (يوسف:٢٣).

ومرة أخرى تهدده أمام مجموعة من نساء القصور ، وتقول لهن فى حنق وغيظ : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (يوسف:٣٢)

فماذا كان موقف يوسف إزاء الإغراء المهدد ، والتهديد المغرى ؟ !

لقد وجد نفسه مخيراً بين محنتين : منحة فى دينه : أن يزنى ويكون من الفاسقين .. ومحنة فى دنياه : أن يسجن ويكون من الصاغرين .

فاختار الثانية على الأولى ، وضحى بدنياه من أجل دينه ، وبحريته من أجل عقيدته ، وقال قولته المعروفة يناجى بها ربه : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (يوسف:٣٣).

لقد كان صبر يوسف أرقى من صبر أبيه يعقوب على ما بلى به من فراقه ، وأرقى من صبر أيوب على ما بُلِىَ به من ضُرٍّ جسده وفراق أهله ، لأن هذا صبر اضطرارى لا حيلة فيه ، علىٰ حين صبر يوسف صبر اختيارى .

وفى هذا المعنى ينقل المحقق ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية قوله : « كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها ، أكمل من صبره على إلقاء إخوته له فى الجب ، وبيعه ، وتفريقهم بينه وبين أبيه ، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره ، لا كسب له فيها ، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر .

وأما صبره عن المعصية ، فصبر اختيار ورضا ، ومحاربة للنفس ، ولاسيما مع الأسباب التى تقوى معها دواعى الموافقة .

(أ) فإنه كان شاباً ، وداعية الشباب إليها قوية .

(ب) وعزباً ، ليس معه ما يعوضه ويرد شهوته .

(ج) وغريباً ، والغريب لا يستحى فى بلد غربته مما يستحى منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله .

(د) ومملوكاً .. والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر .

(هـ) والمرأة جميلة وذات منصب ، وهى سيدته ، وقد غاب الرقيب ، وهى الداعية له إلى نفسها ، والحريصة على ذلك أشد الحرص .

(و) ومع ذلك توعدته ـ إن لم يفعل ـ بالسجن والصغار .

ومع هذه الدواعى كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله .

وأين هذا من صبره فى الجب على ما ليس من كسبه» [1] ؟ ! هـ . وهو كلام جيد ، ومنطق قوى لا يحتاج إلى تعليق وتأييد . ومما ينبغى أن يُذكر من صبر يوسف الصديق عليه السلام : موقفه عندما جاء الأمر الملكى بالإفراج عنه ، واستدعائه لمقابلة الملك بشخصه . فلم يطر لبه لهذا النبأ ، ولم يفقد ثباته ، رغم مرور السنين الطوال عليه وهو يعانى ظلم السجن وظلامه ، بل طلب ـ قبل كل شىء ـ التحقيق فيما نسب إليه زوراً وبهتاناً ، لتظهر للناس براءة ساحته ، ونصاعة صفحته ، وهذا ما حدث بالفعل ، كما تحكيه لنا آيات قصته من القرآن المجيد :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (يوسف: ٥٠، ٥١).

وهكذا لم يبرح سجنه حتى ثبتت براءته ، وعادت إليه كرامته . وازداد الملك إعجاباً به ، وتقديراً له . وكانت النتيجة ما قصة القرآن : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ (يوسف: ٥٤).

فقبل التحقيق قال : ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ﴾ فحسب . أما الآن فهو يقول : ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ . مما يدل على زيادة اهتمام وتكريم . ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (يوسف: ٥٤).

• صبر الذبيح إسماعيل

وهذا نموذج رفيع من نماذج الصبر لأنه يمثل الصبر على طاعة الله تعالى فيما أمر مهما يكن وراءه من مخاطر وتضحيات .

هذا النموذج يتمثل فى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

---

(١) مدارج السالكين .

فقد رأى الخليل إبراهيم صلوات الله عليه فى المنام أنه يذبح ولده إسماعيل ـ ورؤيا الأنبياء وحى ـ ففهم الإشارة وعرف المراد ، فجاء بابنه المطلوب وعرض عليه الأمر قائلاً : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ؟ !

(الصافات:١٠٢)

عرض فى غاية من الإيجاز والسهولة ، ولكنه يتضمن أمراً فى غاية الخطر وهو بذل الحياة والروح طاعة لله

ترى ماذا كان موقف الفتى وقد طلب منه تقديم عنقه للسكين ، بعد أن اشتد ساعده وصلب عوده ، ونضر شبابه ؟ !

لقد حسم الموقف بجملتين قالهما لأبيه ، خلدتاه فى سجل الأنبياء الصابرين وجعلتا منه قدوة للمؤمنين الصالحين : ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

يا أبت افعل ما تؤمر ، أى لا تأخذ رأيى ، ولا تنتظر مشورتى ، بل نفذ ما عندك من أمر الله دون هوادة ولا إبطاء . ولهذا قال : ﴿ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ ولم يقل « افعل بى ما تؤمر » فناء عن نفسه ، ونسيانا لذاته ، كأن الأمر لا يتعلق برقبته وإنهاء حياته .

ثم يقول : ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [1] فهو لا يدعى بطولة ولا شجاعة ولا يتطاول بقدرته على التحمل ، بل يكل الأمر إلى الله ، ويستند فى صبره إلى إذنه ومشيئته ، وإنه بهذه المشيئة المعينة والموفقة ، سيدخل فى زمرة الصابرين .

وقد كان . وصدق العمل القول ، وأسلم الوالد ولده ، وأسلم الولد عنقه ، وتلّه أبوه للجبين ، وتهيأ للذبح بالسكين . وهنا كان الابتلاء قد بلغ غايته ، وحقق ثمرته . لقد نجح الوالد والولد كلاهما فى الامتحان . ونفذا ما أمر الله به دون تردد أو ارتياب .

---

(١) يلاحظ أن هذه العبارة أقوى من عبارة موسى عليه السلام : ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ (الكهف:٦٩) ولعله لهذا صبر إسماعيل هنا ما لم يصبر موسى ـ عليهما السلام ـ هناك .

فلا غَرو أن جاءت البشرى من السماء : ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (الصافات: ١٠٤-١٠٧) .

وبهذا دخل إسماعيل ديوان الصابرين ، وسجل الله له ذلك في كتاب الخلود : ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ [1] كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٥-٨٦) .

لقد كان يوسف الصديق نموذجاً للصبر عن معيصة الله تعالى ، وكان إسماعيل نموذجاً للصبر على طاعة الله تعالى ، فأى الصابرين أرفع مكاناً ، وخير مقاماً ؟

هنا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول فيما نقله ابن القيم عنه : « الصبر على أداء الطاعات ، أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية » .

قال ابن القيم : « وله ـ رحمه الله ـ في ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجهاً ، ليس هذا موضع ذكرها »[2].

● صبر أولى العزم من الرسل

وهذه نماذج أخرى للصبر ، أحسب أنها ، في نوعها ، أعلى من كل النماذج السابقة ، لأنها تمثل الصبر على مشاق الدعوة إلى الله . وما تكلفه أصحابها من تضحيات وأخطار . وهو صبر على تكميل الغير ، وما قبله صبر على تكميل النفس .

إنه صبر أولى العزم من الرسل ، الذين أمر الله خاتم رسله ، وصفوة خلقه ، ورحمته إلى العالمين ، محمد بن عبد الله أن يتخذ منهم أسوة في صبرهم ، حين قال : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٥) .

---

(١) قرن القرآن بين هؤلاء الثلاثة من الرسل في هذه الآية من سورة الأنبياء ووصفهم بالصبر ، ولكن لم يعرف ما صبر عليه إدريس وذو الكفل خاصة .

(٢) مدارج السالكين جـ٢ صـ ١٥٧ .

وقد اشتهر أن أولى العزم من الرسل هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بالإضافة إلى محمد ﷺ [1]، وهم الذين خصهم الله بالذكر فى سورة الأحزاب بقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ (الأحزاب:٧) .

كما ذكر فى سورة الشورى فى قوله : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى:١٣) .

وهؤلاء الأربعة لقوا من العنت والأذى والبلاء أكثر مما لقيه غيرهم من المرسلين .

فنوح لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، دعاهم سراً وجهاراً ، وليلا ونهاراً ، وتبشيراً وإنذاراً ، فلم يجد إلا وقراً فى الآذان ، وغشاوة على الأبصار ، وختماً على القلوب ، وقد حكى هو عن نفسه وما بذل فى دعوة القوم ، وما قاسى من إعراضهم عنه ، فقال مناجياً ربه ، بما جاء فى سورة نوح : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح:٥-٧) . فهذا هو موقفهم ، لا يريدون أن يسمعوا له صوتاً ، ولا أن يروا له وجهاً ، فهم يضعون الأصابع فى الآذان لئلا يسمعوه ، ويستغشون ثيابهم لئلا يبصروه . إنه الإصرار العنيد ، والاستكبار الجحود .

ثم يقول نوح : ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١

---

(١) جرينا على القول المشهور بناء على أن «من» فى قوله : ﴿ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف:٣٥) «تبعيضية» . وبعضهم يضيف إلى المذكورين هنا إسماعيل ويعقوب ويوسف وأيوب الذين ذكرناهم من قبل ، وبعضهم جعل الرسل كلهم أولى عزم ما عدا آدم لقوله :﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ (طه:١١٥)، ويونس لقوله : ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ (القلم:٤٨).

والقول الثانى : أن «من» فى قوله : ﴿ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف:٣٥) للتبين لا للتبعيض . ولم يبعث الله رسولا إلا ذا عزم . أما آدم فنفى العزم عنه فى قضية جزئية وهى الأكل من الشجرة . وقد يقال إنه لم يكن رسولا . ويونس نهى عن التشبيه به فى حالة معينة : ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ (القلم:٤٨) . لا فى كل الأحوال بدليل : ﴿ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (القلم:٥٠).

وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَرًا ﴾ (نوح:٨-١٢) . إلى آخر الآيات . فلم يجد من قومه رغم تنوع الوسائل ، وتعدد الأساليب ، إلا الكنود والإعراض ، والسباب والاستهزاء ، بمثل ما جاء فى سورة هود : ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ (هود:٢٧) .

وما جاء فى سورة «المؤمنون» من مثل قولهم : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (المؤمنون:٢٥).

وتمضى السنون ، وتمر القرون ، وتتوالى الأجيال ، يذهب فيها الآباء ويعقبهم الأبناء ، ويرحل الأجداد يخلفهم الأحفاد ، فى نحو ثلاثين أو أربعين جيلاً متعاقبة ، ولكن الطينة من الطينة ، والعجينة من العجينة ، مطموسون أبناء مطموسين ، فلا عجب أن دعا نوح ربه دعوته المعروفة بعدما استحكم اليأس ، وفاضت الكأس ، وطفح الكيل : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (نوح:٢٦،٢٧) .

وإبراهيم يصبر على دعوة أبيه . وقومه إلى التوحيد ، ويتلطف فى دعوة أبيه غاية التلطف ، ويتحمل خشونته وتهديده : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ (مريم:٤٦)، فلم يسع إبراهيم إلا أن قال : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ۝٤٧ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾(مريم:٤٧،٤٨)

ويستمر إبراهيم فى دعوته ، ويستمر القوم فى ضلالهم ، إلى أن كانت واقعة تحطيم الآلهة ، وتكسير الأصنام ، وعرف القوم أن إبراهيم هو فاعلها ، فاجتمعت كلمتهم على أن ينتقموا لآلهتهم منه ، وأن يحرقوه بالنار ، كما حرق قلوبهم عليها . وأوقدت النار التى تسابق القوم لإضرامها وتغذيتها بالوقود ، تقرباً للأصنام الكسيرة ، وإرضاء للآلهة المحطمة ، التى لم تدفع عن نفسها .

وأُخذَ إبراهيم عليه السلام وأُلقِىَ فى النار ، فما جزع ولا اضطرب ، ولا التجأ إلى غير الله ، بل كان ذكره الدائم على لسانه : « حسبى الله » .

ولم يكله الله تعالى إلى نفسه ، ولا إلى أعدائه ، ولا إلى أحد من خلقه ، بل تولى سبحانه الدفاع عنه بنفسه ، وسلب النار طبيعة الإحراق ، وقال لها : ﴿ يَٰنَارُ كُونِى بَرۡدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ (الأنبياء:٦٩) وكانت كما أراد الله ، وبطل كيد أعداء الله .

وموسى وُلدَ يوم وُلدَ فى جو من الرعب والفزع ، فرضه فرعون على قومه ، وأوحى إلى أمه إذا خافت عليه أن تلقيه فى اليم ، وقُدِّرَ له أن يلتقطه عدو الله وعدوه فرعون ، وأن يقع منه قتل خطأ ، فيخرج من مصر خائفاً يترقب ، ليلبث فى الغُربة عشر سنين ، بعيداً عن أهله وقومه . ثم يبعثه الله تعالى ليواجه جبروت فرعون وهامان وجنودهما . فما أن بلغ موسى رسالته لفرعون ، حتى طفق يرغى ويُزبد ويهدد ويتوعد ، ويسخر ويستهزئ . قال : ﴿ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾(الشعراء:١٨،١٩)

ويرى فرعون ويسمع ما يدعو إليه موسى من توحيد الله تعالى وإبطال أُلهية مَنْ سواه وما سواه ، وهو يقول للناس : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ (النازعات:٢٤)، ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِى ﴾ (القصص:٣٨) فيطير صوابه ، ويتوعد موسى تارة بالسجن : ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِى لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾ (الشعراء:٢٩).

وطوراً بالقتل : قتله هو ـ عليه السلام ـ أو قتل الذين آمنوا به واتبعوه : ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِىٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾ (غافر:٢٦) !

وقال فرعون وهامان وقارون : ﴿ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ ﴾ (غافر:٢٥).

ويصبر موسى على هذا كله ، ويوجِّه قومه إلى الاستعانة بالله وبالصبر حتى ينصرهم الله ويُهلك عدوهم : ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡىِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ۝١٢٧ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُواْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا

وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ (الأعراف:١٢٧-١٢٩) على أن موسى عليه السلام ، قد صبر على لون آخر من البلاء ، لعل نبياً آخر لم يُمتحن بمثله ، ذلك هو الصبر على أذى قومه وإعنات أتباعه من بنى إسرائيل ، وكثرة تمردهم ، وطول عنادهم وقسوة قلوبهم ، حتى سُموا فى التوراة « الشعب الصلب الرقبة »

وقد ذكر القرآن الكريم العديد من التصرفات السيئة لبنى إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام . ومنها أنهم بمجرد أن جاوزوا البحر الذى أغرق الله فيه عدوهم : ﴿ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ (الأعراف:١٣٨) .

ومنها أنهم حين قال لهم موسى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ﴾ قالوا فى مواجهته بكل وقاحة : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾.

ومنها أنهم بمجرد ذهاب موسى إلى الطور لمناجاة ربه ، صنع لهم السامرى عجلاً من الحلى ، فاتخذوه إلهاً وعبدوه ، وفيه يقول تعالى : ﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ (البقرة:٥١) .

ومنها أنهم أمروا بدخول الأرض المقدسة التى كتب الله لهم ، وألاَّ يرتَدُّوا على أدبارهم فينقلبوا خاسرين . فلم يستجيبوا لأمر الله على لسان منقذهم ورسولهم ، وبعد أخذ ورد ، وجذب وشد ، كان غاية موقفهم أن قالوا : ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ (المائدة:٢٤) . فلم يملك موسى إلا أن يُناجى ربه فيقول فى أسى وحزن:﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (المائدة:٢٥)

ومنها أنهم لما أكرمهم الله فى التيه ، وظلَّل عليهم الغَمام ، وأنزل عليهم المَنَّ والسلوى ، طعاماً طيباً سهلا يأكلونه بلا جهد ولا معاناة فى صحراء قاحلة ، قالوا بكل صفاقة وتبجح : ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ (البقرة:٦١) ؟ ! .

ومنها الكثير والكثير من مواقف السوء التى يضيق بها صدر الكريم ، وينفد عندها صبر الحليم . ومع هذا لم ينفد صبر موسى عليه صلوات الله وسلامه.

ولا غَرو أن وجدنا رسولنا محمداً ﷺ حين رأى وسمع بعض ما آذاه من قومه يستحضر ما أمره الله به من الاقتداء بأولى العزم فى صبرهم ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف:٣٥) ويتذكر ما عاناه أخوه موسى من قبله من الشعب الغليظ الرقبة ، فيصبر ويحتسب منوهاً بصبر كليم الله موسى عليه السلام .

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قَسَّمَ رسول الله ﷺ ذات يوم قَسماً فقال رجل من الأنصار[1]: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله !

قال : فقلت : يا عدو الله ، أما لأُخبرن رسول الله ﷺ بما قلت ، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فاحمر وجهه ثم قال : « رحمة الله على موسى ! لقد أُوذى بأكثر من هذا فصبر »[2] والحديث فى الصحيحين أيضاً .

والمسيح عيسى ابن مريم بُعِثَ إلى « خراف بنى إسرائيل الضالة » ـ كما قال عن نفسه فى الإنجيل ـ فواجه ما واجه أخوه موسى من قبل ، تعنَّت هذا الشعب « الصلب الرقبة» ولم يجد من أحبارهم إلا التكذيب والعصيان ، والجمود على الرسوم والشكليات ، دون استعداد للترقى إلى الأفق الروحى الحقيقى ، وقد وعظهم بأبلغ المواعظ ، وضرب لهم أروع الأمثال ، فلم يلق إلا آذاناً صُمًّا ، وقلوباً غُلْفًا ، فلم يجد لهم وصفاً أبلغ من أن يخاطبهم بقوله : « يا أبناء الأفاعى » !

لقد رفضوا دعوته ، وقالوا فيه وفى أمه أسخف القول وأكذبه ، وباتوا يكيدون له ، ويمكرون به ، ويتآمرون عليه ، ويُؤلبون عليه حكام الرومان ، بما أُوتوا من جهد وحيلة ودس . وكان ثمرة هذا الكيد أن تقرر قتله وصلبه عليه السلام ، لولا أن الله تعالى أحبط مكرهم ونجَّاه من شرهم . وقد سجل ذلك القرآن عليهم ضمن ما سجَّله فى صحيفة آثامهم ، ووثيقة اتهامهم ، فقال : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (النساء:١٥٦،١٥٧) .

---

(١) كان من المنافقين كما فى فتح البارى .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٥٢١ .

وهكذا نجد هؤلاء الرسل العظام : شيخ المرسلين نوحاً ، وأبا الأنبياء إبراهيم ، وكليم الله موسى ، وروح الله وكلمته عيسى ، لقوا فى سبيل دعوتهم أشد العَنَت وأقسى الأذى ، وهم صابرون على المكروه ، ثابتون على الحق ، لم يجزعوا ، ولم ييأسوا ، ولم يملوا ، حتى حكم الله بينهم وبين أعدائهم بالحق ، وهو خير الحاكمين .. فنجى رسله والذين آمنوا معهم وجعل خصومهم هم الأخسرين .

لقد وضع القرآن أمام الرسول ﷺ تجارب هؤلاء الرسل الكبار مع أقوامهم ، لتكون له زاداً ورصيداً . وهو يحمل دعوة ليست مقصورة على إقليم ولا شعب ولا جيل ، بل هى للناس كافة ، وإلى أن تقوم الساعة .

ومن ثَمَّ أمر الرسول ﷺ أن يصبر كما صبروا ، ليظفر كما ظفروا ، وهذا ما وعاه النبى ﷺ ، ووضعه نُصب عينيه ، تحقيقاً لأمر ربه .

روى ابن أبى حاتم فى تفسيره عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ حدثها بعد صيام طويل صامه ثم قال : يا عائشة ، إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد .. يا عائشة ، إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها . والصبر عن محبوبها ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم ، فقال ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف:٣٥) وإنى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ، ولا قوة إلا بالله »[1] .

ولقد صبر رسول الله ﷺ ، كما أمره ربه ، وكان من أولى العزم ، بل إمامهم ، فهو سيد الصابرين والشاكرين .

* * *

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ١٧٢ ط الحلبى .